الصراع الهوياتي في رواية " الحفيدة الأميركية" لإنعام كجه جي أنموذجا

The Identity Conflict in the Novel "The American Granddaughter" by Inam Kajaji as a model

طالب الدكتوراه: محمد بوزياني
الدكتور: حميد بوحبيب

قسم اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، **جامعة الجزائر2/الجزائر**
مخبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر2/الجزائر
mohamed.bouziani@univ-alger2.dz

تاريخ الإيداع: 2022/10/01 تاريخ القبول: 2023/04/16 تاريخ النشر: 2023/12/05

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن التجربة الروائية، التي كتبت عن الآخر الذي نقصد به أمريكا وبالأخص في الوقت المعاصر، في الآداب العالمية المختلفة بالاعتماد على نماذج محددة تكون كمنطلق نريد من خلاله تفكيك الخطاب وتحليل الأنساق الثقافية المضمرة فيه، إذ نتناول جانبا من حوار الحضارات والأديان، هل هي موجودة فعلا بالإضافة إلى مسألة التحرّر من الكراهية، وخطاب الخوف على الهوية ومعادات الآخر.

وقد آثرنا مدونة روائية تحت عنوان "الحفيدة الأميركية" لإنعام كجه جي" – لأن الرواية حين تكون بوليفونية وعميقة تعد أكثر الأجناس الأدبية قدرة على بلورة هذه الصورة متعددة الأبعاد التي نروم الكشف عنها.

الكلمات المفتاحية: **صورائية، أمريكا، عراق، هوية، حلم.**

Abstract:

This study seeks to reveal the narrative experience that was written on the other by which we mean America ،especially in the

contemporary time ،in various international literatures by relying on specific models that are as a starting point through which I want to break up the discourse and analyze the cultural contexts involved in it .

We have chosed a novel blog under the title "The American Granddaughter " for Inam Kajah Ji - because the novel ،when it is polyphonic and deep ،is the most literary genre able to crystallize this multidimensional image that we want to reveal.

key words: **Imaginary; America; Iraq; Identity; dream.**

1. مقدمة

غالبا ما ترتبط الصورة بالمكان لتشكل مادته الرئيسة، لأنّ المكان في الرواية هو الميدان أو المجال الحيوي الذي يوازي مسرح الأحداث، ولأنّ السّرد يشكل العنصر الأهم في بناء رواية "إنعام كجة جي" فإنه يعد الوسيلة الأقوى في إدارة حركة الأحداث والانتقال من زمن إلى زمن ومن حدث إلى آخر، ولأنّ الإنسان المغترب يشعر بحنين جارف إلى مرابع الطفولة والصبا وملامح مسقط الرأس، فإنّه حينما يتعرض للكرد أو الإزاحة يظل ينتظر وضعا جديدا يعمّق صلته من جديد بتلك الملامح الغائبة الحاضرة حين يقوم باسترجاع الماضي، ثم يضيف إليها ما يسمعه عن تهشيم القدرة الذاتية للإنسان المبدع، فيتخذ من الصورة وسيلة فنية لعرض ما جرى وما يجري من فعل تدميري مشحونا بالملامح الاجتماعية والحضارية للإنسان وهو يقاوم حملات التطهير الجسدي والنفسي لبطلة الأحداث "زينة" المتناقضة، فلا هي مواطنة أمريكية بامتياز، ولا هي تخلت عن أصولها العراقية العريقة الممتدة عبر التاريخ وهذا بدوره خلق تعادلية غير مقصودة، ولكنها حاضرة في جسد البناء الروائي والأفكار المتعلقة به، لأنّ الوقوف بين الرفض والانتماء المقترن بالحنين هو وقوف غير حيادي، ولكنه تعبير عن العلاقة الحميمية بين الانسان والمكان، وهما يخضعان لتحولات عديدة جعلت الحديث عن التاريخ بوصفه مشجبا نوعا من الهروب من الحفر العميق في البؤر الخفية في تشكلات البناء والحياة والانسانية، وذلك من خلال خلق كيان سردي يتوغل بعيدا عن المباشرة في إبراز هذه القيمة، ولكن يبدو أنّ التدفق العاطفي والذكريات المريرة قد فعلت فعلتها في تغليب الجانب السياسي وإقحامه بقوة اعتاشت على الجوانب الفنية التي من المفترض أن تأخذ بها الرواية، أما الجانب

التصويري، فإنه استند إلى الصورة بوصفها حكاية مكانية، أو حدثا مكانيا، فضلا عن كون الكاتبة حرصت على أن تجعل الاهمام بالصورة جزءا من الاهتمام بالمكان والتشكيل، أو جعلتهما جزءا من النزعة العالية في التصوير ونلمس ذلك من خلال الانطباعات المترتبة عن زيارة "زينة" لمختلف القصور بالعراق ومن جملة ذلك قصر "صدام" وكذا القصر المليء بالمجوهرات التي كانت تقيم فيه زوجته .

قام البناء السردي على تجاذب حركتي الحاضر والماضي، أو التاريخ المسترجع والأحداث المعاصرة، وهذا بدوره سمح بهيمنة التاريخ السياسي على المساحة المكانية المطروحة، حتى بدا الانتقال من المنفى إلى الوطن أو بدت العلاقة بين التجنيد كمترجمة في الجيش الأمريكي بمقابل مادي مغري والحنين للأصل مرتبكة نتيجة الاحساس بوجود فراغ واسع بين هذين الجانبين/ وهذا ما يؤدي إلى الانتقال بالسّرد نحو تاريخ الطرد، أو التاريخ السياسي القائم على الصّراعات، وهو الذي يمتلك قوة التأثير الكبرى.

2. الصورة السلبية عن أمريكا:

تحضر أمريكا في رواية " إنعام كجه جي" كدولة استعمارية غازية تصور لنا الغزو الأمريكي للعراق في ظل نظام حكم صدام بالإضافة إلى بعض القضايا المتعلقة بالهجرة أو حياة المنفى والشتات التي كانت تعاني منه بطلة الرواية، وما حملته من تداعيات حول الفصل في هويتها،

إذ نلمس ذلك في الرواية من خلال حديث البطلة عن إغراءات الأمريكيين للمهاجرين العرب واستغلالهم في الحرب ضد إخوانهم عن طريق المال ووسائل الدعاية الأخرى كوسائل الإعلام التضليلية، ""سبعة وتسعون ألف دولار في السنة ماكل نايم شارب"[1].

هذه المكافأة تكون من نصيب العرب والعراقيين القاطنين بديترويت مقابل تجنيدهم في صفوف الحملة الأمريكية ضد نظام حكم صدام، وفي هذا إشارة إلى سياسة أمريكا الإمبريالية التي تسعى إلى بسط سيطرتها على العالم عن طريق الإغراءات المادية واستغلال المهاجرين الفقراء، وهذا نوع من أنواع النيوكولونيالية التي تبنتها الولايات المتحدة الأمريكية وفق

بروباغاندا واضحة المعالم خدمة للوبيات ضاغطة في الشرق الأوسط، تحت غطاء محاربة نظام صدام والحد من أسلحة الدمار الشامل في المنطقة ونشر الديمقراطية.

2-1- صورة العراقي المهاجر في المجتمع الأمريكي:

تصور لنا بعض المقتطفات من رواية "الحفيدة الأمريكية" جانبا من الواقع الذي اصطدم به المهاجرون العراقيون وعرب ديترويت أثناء مكوثهم بأمريكا حيث تعرفوا على الوجه الحقيقي لأمريكا والمجتمع الأمريكي بصفة عامة وانزاحت عنهم تلك الأفكار المسبقة عن أمريكا الحلم، أمريكا الجنة إلخ، من خلال احتكاكهم و اندماجهم في المجتمع الأمريكي لما يحمله من تناقضات طبيعة وشعبا وثقافة وفكرا، ويتجلى ذلك في حديثها عن عراقيي ديترويت وعربها " فتستعر شموس تحت الأغطية الثقيلة، ويتمايل سعف نخيل فوق طبقة الثلج التي كانت لا تزال تغطي حدائق البيوت""[2]، إشارة إلى طبيعة أمريكا الباردة وقساوة المناخ، كما نجد ذلك أيضا عند ذهاب "زينة" لتحضير ملف يسمح لها بالتجنيد إذ تقول:« بقيت ساكنة أرقب الثلج النادف على الزجاج الأمامي..."[3] وربما هذا الأمر يعكس لنا برودة المشاعر في هذا المجتمع الأمريكي فبعد هذه العبارات تحمست البطلة للإبحار نحو المياه الدافئة و الوصول إلى بلدها الأصلي العراق الذي لا تحتاج فيه إلى هذا الكم من اللباس، تكفيها حرارة اللقاء بأهلها لتشعرها أنها منهم، من هنا يتبين لنا أن المهاجر العراقي عانى كثيرا من الطبيعة القاسية التي توافرت في مدينة "ديترويت الأمريكية" أو بالأحرى دلالة أخرى على فتور العلاقة و الشرخ الكبير بين الشرق و الغرب.

كما نجد صورا أخرى لاستغلال الأمريكيين للمهاجرين العراقيين عن طريق الإغراءات المادية، بعد وقوع معظم الأفراد في فخ الآفات والإدمان «...مئة وستة وثمانين ألف دولار في السنة... رقم... يكفي لإرسال أخي يزن، الذي صار اسمه جايزن إلى مصحة لعلاج الإدمان وإدخاله، بعد ذلك إلى الجامعة سنة واحدة أو سنتين، بعدها تعتدل الأمور، وأغسل صدر أمي من سخام كل السجائر الرخيصة التي دخنتها بإفراط وهي تنتحب "[4].

من هنا كان تفكير "زينة" في التجنيد مقابل الدخل المادي المريح من أجل انتشال أفراد العائلة من حالة البؤس والفقر الذي تتخبط فيه، بمقابل مادي أي أمريكا لا تعالج الفقير ضف إلى ذلك الدراسة في الجامعة تكون بدفع أقساط، وإلا فلن يكون لك ذلك، الدراسة ليست مجانية وهذا ما يعكس لنا المجتمع الأمريكي البراغماتي المادي، ضف ؟إلى ذلك معاناة المهاجرين في أمريكا و بكائهم على ظروفهم هناك، وهذا ما يدفع بهم إلى الارتماء في حضن الآفات الاجتماعية كالتدخين و الإدمان على المخدرات و الكحول وهذا ما يوضح لنا صورة المجتمع الأمريكي، المنحل أخلاقيا و الفاسد ماديا و البارد طبيعيا.

2-2- صورة الشخصية الأمريكية المريبة:

نجد مفارقة بناء الشخصية في رواية "الحفيدة الأمريكية" لإنعام كجه جي، فشخصية زينة بهنام في الرواية شخصية قوية تحب دائما مسك زمام الأمور، كما أنها شخصية قيادية:"" أنا الزعيمة التي كانت تقود عصابة الأصدقاء وتحجز في المطاعم وتخطط للرحلات وتقرر من يجلس بجوار من وتراقب كل شاردة وواردة""[5].

وتتطور شخصية "زينة" عندما تعود إلى العراق بوصفها مترجمة مع الجيش الأمريكي، بدوافع شتى، إذ تستعيد ربط ذكرياتها في العراق وتتحول إلى شخصية منهزمة وتقع في ضياع لا متناه وفقدان الرغبة في العيش فالمهمة التي عادت بها الشخصية تحتم عليها عيش اختبار إنساني صعب وفريد، يبرز فيه سؤال الهوية، فزينة هي ابنة العراق وعدوته، والعراقيون هم أهلها وخصومها في آن واحد ""فكل شخصية في هذه الرواية انطوت على الشيء وضده في الوقت نفسه""[6].

وهذا التضاد الذي عاشته زينة في شخصيتها قبل مجيئها للعراق وبعده خلق نوعا من المفارقة قائمة على التناقض والريبة في آن واحد، فبدت المفارقة واضحة عندما اصطدم الحاضر بالماضي، ديترويت بالعراق، المهاجرة بالوطن، الوجود بالعدم الحفيدة بالجدة...

ويستند هذا النوع من المفارقة الفنية عندما ينشأ صراع بين قيمتين متناقضتين داخل الذات الإنسانية وفي آن واحد، كصراع الخير والشر، أو الحب والكره، أو الرحمة والقسوة،

فتصطدم القيم ببعضها البعض مولدة بذلك مفارقة الأحوال وهذا ما نراه أيضا في الرواية عندما تسرد لنا "زينة" تفاصيل العلاقة التي جمعتها بمهيمن وانجذابها إليه ووقوعها في حبه منذ الوهلة الأولى.

""أحببت اسمه قبل أن أحبه، كان هو الشخص الذي سحبني إلى توتر شخصيته وأسلوبه الخاص في الكلام، شخص نسيج وحده، عبارة لم تسعفني بها المؤلفة، وجدتها بنفسي، هل أحببته لصفاته أم تحديا لقدرتي على الاقتراب من خصومي؟ أي فيلم كان ذاك الذي تعشق فيه الرهينة خاطفها؟""[7]، لقد نشأ الصراع داخل زينة (مجندة في قواعد الجيش الأمريكي في العراق) بعد أن وقعت في حب مهيمن (أخيها بالرضاعة المجند في جيش المهدي)، فواجهت زينة مجموعة من الثنائيات المتضادة فهي (الأمريكية/ العراقية) و (العاشقة/ الأخت)، وهو (العدو/ الصديق) و(المعشوق/ الأخ)، فوقفت شفطة حليب لتضع حجابا مانعا بين زينة ومهيمن فهل يمثل كل هذا حنينا إلى الوطن الأم واسترجاعها لذكريات الصبا واللهو أم انفصاما في الشخصية واغترابا داخليا سبب لها أزمة هوية، مما يجعلها شخصية مثيرة للريبة بامتياز.

2-3- صورة الأمريكي القبيح:

نتناول في هذا الجزء جانبا من الشخصية الأمريكية القبيحة أو الأمريكي القبيح من خلال الزيارة التي قامت بها الجدة رحمة إلى المكان الذي تعمل فيه حفيدتها وتفطن زينة لملامح الجدة المتقلبة: "" لا شك أنها شاهدت المجندين والمجندات، يروحون ويجيئون في المكان، والسيارات العسكرية تجتاز البوابة... الأمور كانت متشابكة... الفوضى... والأهالي... لا يدرون هل يرحبون بالقادمين على الدبابات أم يبصقون عليهم""[8]، كل هذه المظاهر تبين قبح الجنود الأمريكان ونزوعهم إلى التسلط، كما أننا نجد نوعا من الشخصية الأمريكية التي لازمت زينة أثناء إجرائها للمقابلة مع ضابطة المخابرات: عندما طرحت عليها السؤال: ""لو خطفك الإرهابيون وهددوك بالتعذيب... ماذا تكشفين لهم من أسرار؟

-سأدس حذائي في مؤخراتهم.

نطقت بها وأنا في كامل الجد، لم تستغرب الضابطة بذاءتي وسرّت بالجواب""[9]، عكست لنا الكلمات التي خرجت من فم زينة المتأمركة مدى تأثير الثقافة الأمريكية فيها وكيف أنها أصبحت امرأة متبجحة تتفوه بالكلام البذيء دون إعارة أدنى اهتمام للآخر وتواصل الحديث عن قبح الجنود الأمريكان ""تزداد شراسة ضباطنا كلما ازدادت خسائرنا""[10].

وفي هذا إشارة إلى انفلات الوضع في الموصل بعد العمليات التي قامت بها فرق المقاومة العراقية، حيث جيء "بلواء للسيطرة على الوضع رغم أنه ينتمي إلى الجيش العراقي الجديد الذي يعمل جنبا إلى جنب مع دوريات العسكر الأمريكي، مهمتهم ملاحقة العصاة من شارع لشارع على أمل إعادة النظام للمدينة، يلقبونهم بالعصاة أو المتمردين الإرهابيين المجرمين.

وها هي زينة تحكي لنا ما حدث لها عند وصولها إلى مقر "السي. آي. أي" في فرجينيا ""أخضعوني لمقابلات مفصلة وأجلسوني في محاضرات حول طبيعة العمل، وعرضوا علي خرائط وأفلاما عن جغرافية المكان، وأرسلوني لإجراء فحص طبي شامل""[11]، في إشارة منها إلى طبيعة الشخصية الأمريكية العسكرية التي تتميز بالصرامة والانضباط وتطبيق القوانين بحذافرها، كما أننا نجد صورا سلبية أخرى متنوعة تتطرق إليها باختصار لأن المقام لا يسعنا ومن جملة ذلك نجد:

2-4- صورة الأمريكي مدمن الكحول:

يتجلى ذلك عندما كان "كالفن" يسأل زينة عن أعظم اختراعات القرن العشرين في رأيها: ""سألني كالفن وهو يعتصر علبة البيرة بأصابع يمناه ويحيلها إلى معدن مطعوج: يستطيع كالفن أن يأتي على علبة البيرة المثلجة بجرعتين لا ثالثة لهما، يفتح العلبة متلذذا... وينهل منها الجرعة الأولى... يبتلع المشروب الفوار ثم يطلق فحيحا أفعوانيا"[12] وبعد أن أجابته بأن النارجيلة هي أعظم اختراع بالنسبة لها ""يأتي على ما بقي في علبة البيرة ويفح سعيدا..."[13]

مما سبق يتضح لنا أن الأمريكي مدمن على المشروبات الروحية، هذا ما يولد لدى العربي شعورا بالنفور منه لأن الدين يحرم ذلك، وأياما كان الأمر فإن كل شخص حر في تصرفاته ولكل بيئته ومعتقداته.

3- الصورة الإيجابية عن أمريكا (صورة أمريكا الحلم):

تمثلت صورة أمريكا الحلم في نفوس العراقيين من خلال تحمسهم لقدوم الأمريكان إليهم و تخليصهم من نظام صدام بالإضافة إلى سعيهم الحثيث للهجرة إلى أمريكا و العيش فيها انطلاقا من صور نمطية رسمت في مخيلتهم عن أمريكا الحلم ...إلخ.

نجد في رواية الحفيدة الأمريكية صورا عديدة تبين الإعجاب بأمريكا، فهي بمثابة حلم لكل شخص سواء بما تحمله من ثقافة وعادات، أو بما وصلت إليه من فكر راق ونمط معيشي متفرد، جعلها تحظى بالسبق على باقي دول العالم في ميدان التقدم العلمي والتكنولوجي على كافة المستويات لذلك سعى الفرد العربي إلى الهجرة نحو أمريكا أرض الميعاد أو جنة الله في الأرض ممنيا نفسه بالحصول على الجنسية الأمريكية، لأنها وفق اعتقاده سبيل الخلاص من الفقر والعقد وكل القيود التي لازمت الإنسان الشرقي في مجتمعه وحالت دون تحرره إنها أمريكا الحلم التي لطالما سمع عنها الكثير، فانتابه الفضول للتعرف عن أرض الحريات وبلد الديمقراطية، عن موطن "الكوكاكولا" و "الرادبول" ببساطة.

تزامن ذلك مع إجراءات حصول عائلة زينة على الجنسية الأمريكية والأجواء المصاحبة لها: انتظرناه بفارغ الصبر!""[14] ، عكست لنا هذه المشاهد حالة الترقب واللهفة للحصول على الجنسية الأمريكية، لذوبان الذات في الآخر والانصهار التام فيه واسقاط مقولة: الشرقي شرقي والغربي غربي لتصبح المعادلة، الكل سواسية، لا فرق بين الجنس أو العرق أو الدين.

تواصل زينة حديثها عن مظاهر البهجة والفرحة الغامرة التي لا توصف إذ تقول: ""كل واحد يرتدي مرتين... أولئك الذين لا تسعهم الفرحة بحلول موعد تجنيسهم، إنه عرسهم الجماعي.""[15] ، فمدينة ديترويت ستبقى خالدة في ذاكرتهم.

في هذه اللحظة التاريخية المشهودة تسقط كل الاعتبارات ""اليوم الذي سيؤدون فيه يمين الولاء للوطن الجديد الفائض الخيرات وبعد أداء القسم، سيحق لكل منهم أن يدفع بصدره إلى أمام ويتباهى: آي أم أن أميريكان سيتيزن"[16]، تعتريهم ملامح الافتخار وأخيرا تحقق الحلم، الانتماء إلى أمريكا مدعاة للاعتزاز، تتعزز أكثر صورة أمريكا الحلم فيما يأتي من حديث

عن تحمس زينة للبس البذلة العسكرية والانضمام رسميا لصفوف الجيش الأمريكي مترجمة:"" إنه يوم تجهيز الملابس العسكرية.... تتقدم في اتجاه مخازن الثياب... كأننا عرائس والجيش مكلف بجهاز العروس"" [17]، فرحة زينة لا توصف وعلامات الراحة بادية عليها، لأنه حدث نادر يعبر عن تحول ملموس في مسار حياتها، وعلى مستوي شخصيتها، إذ أكسبها ذلك ثقة في النفس زائدة عن اللزوم وتحمست لأنها تقمصت دور الشخصية المقدامة الذاهبة إلى الحرب، كل الفضل يرجع لأمريكا لأنها منحتها الإقدام والجرأة وقوة الشخصية، وكأني بها تقول لنا بين السطور أنها عاشت في العراق طفولة مهزوزة جعلتها مستضعفة، وبفضل اغترابها وتمكنها من الجنسية الأمريكية تحقق حلمها وعززت شخصيتها وقوتها، وفي هذا دلالة على أن أمريكا تملك القوة، وتحكم العالم بالقوة، ومن لم يكن أمريكيا يلقى حتفه ويموت منزوع الخصيتين، في سبيل الحصول على الجنسية الأمريكية كل الطرق تصبح متاحة، حتى لو تطلب ذلك التخلي عن المبادئ والأخلاق، قمة الانحطاط والرداءة في مقابل الانبهار بالآخر الأمريكي ومحاولة الذوبان فيه يتضح لنا ذلك جليا من خلال الصورة التي رسمتها لنا زينة عن تلك الفتاة المصرية الأصل، المجندة رفقتها في صفوف الجيش الأمريكي.

حيث لجأت إلى حيلة المكر والخداع:"" وكانت المصرية تستولي على المشهد وتلفت الانتباه، محتالة بالفطرة حكت لي، فيما بعد أنها ألقت بشباكها على أمريكي زار الإسكندرية فتزوجها وجاء بها إلى بلده، أخذت الجنسية وانفصلت عن زوجها بعد أن حملت من موزع بيتزا كوبي""[18]، الجنسية الأمريكية حلم كل مواطن أجنبي وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

أثناء لقاء زينة بالجدة رحمة، تم الاستفسار عن أحوال العائلة إلى أن وصلتا إلى الأخ "يزن" الذي يتضح لنا فيما بعد أنه تغير جذريا وتمكنت منه الآفات وأصبح اسمه الغربي مقترنا بالإدمان إذ فقد توازنه في ظل مجتمع متحرر منفتح على كل شيء: "" سألتني عن أخي يزن، فأخبرتها أننا نناديه جايزن، على الطريقة الشائعة في تحوير أسمائنا لتقرب من الأسماء الأمريكية""[19]، لكن السؤال المطروح هنا، هل الحلم الأمريكي يقتصر على تغيير الأسماء وفقط؟ لا يكفي هذا، إنما الحلم الأمريكي مستمد من تاريخها، مبني على الطموح إرادة التغيير من أجل تحقيق الأهداف، أن تكون أمريكيا يجب عليك أن تعمل لذلك، أن تتعب أن تفكر، أن

تخطط، أن تقبل، أن تتحدى أن تستمر رغم الصعاب، أن تنجح، إما أن تكون أو تكون بطريقة أو بأخرى وكما ورد في مقتطف من رواية "هالة سرحان" "خبط لصق" حيث تقول ""يظل الإنسان الأمريكي يحلم (الحلم الأمريكي)، والحلم الأمريكي The American Dreamمن العبارات التاريخية المأثورة والأثيرة بالنسبة لكل مواطن أمريكي، فالمهاجر يأتي إلى أمريكا وفي جعبته الحلم الأمريكي، ما هو الحلم الأمريكي؟ ...هو الرفاهية والثورة والحرية والديمقراطية والنجاح والطموح والصعود، وهو قصة كل نجاح""[20].

حضارة أمريكا لم تخلق من العدم بل هي نتاج تضحيات، ونضال فهم حاليا الأصل والباقي تقليد، بعد الخيبة التي تكبدتها زينة جراء المعاملة الباردة(القاسية) التي لاقتها من الجدة رحمة، تعود لها الأنفاس، وتسترجع روحها من خلال اللقاء الذي جمعها بحيدر المرافق للعجوز، إذ لمست فيه جانبا من الثقافة والفكر السائد في المجتمع الأمريكي "" لم تتصور أن في المكان الذي يقيم فيه يوجد من يعرف جانيت جاكسون وباقي أفراد العائلة الكريمة على الجدران، حتى السقف كان مغطى بالبوسترات.""[21] انسجمت شخصية زينة الأمريكية مع شخص قريبها حيدر العراقي وتماهت إلى حد بعيد، فبقدر الاختلاف في المعتقدات والبيئة التي ترعرعا فيها إلا أنه يوجد ائتلاف وتناغم وتكامل، جسده روح حيدر المتفتحة التي تعشق الحرية، والمتمردة على العادات والتقاليد البالية في ظل المجتمع العربي الذي يعاني التخلف، فقد كان حيدر، نموذجا شاذا للعربي الذي يكسر الأعراف والتقاليد ويعشق الحياة ويقبل عليها متطلعا لكل ما هو حداثي وجديد وهذا ما جعل من الاغتراب ديدنه "" زينة هي الوحيدة التي في إمكانها أن تنتشله... سترتب له أوراق الهجرة وتسحبه معها إلى أمريكا، وهناك سيعيش شبابه الذي ضاع منه، ويشرب على هواه ويطيل شعره ويرقص ويغني ولن يترصده وصي من أوصياء السماء عاشت أمريكا بلد السكارى !""[22] ، وقع "حيدر" بن طاووس في حيرة من أمره إذ أن الجدة رحمة تطلب منه أن يساعدها على تربية زينة من جديد بينما هو يرى أن زينة المخلص له فبإمكانها أن تأخذه إلى أمريكا حسب تفكيره لأنه مولع بالثقافة الأمريكية ومتأثر بمغنيتها أيما تأثر، ضف إلى ذلك فهو لا يعدو إلا أن يكون سكيرا عابثا يعشق الخمرة والنساء والحرية و الأضواء والأجواء

الصاخبة الحياة الأمريكية متجذرة فيه رغم أنه لم يزر هذا البلد قط، حيدر كان يحلم وفي العنصر الموالي سنرى إذ كان حلمه قد تحقق؟ أم أن الواقع فرض نفسه عليه.

4- أمريكا الحلم بين الحقيقة والوهم:

تبين لنا الصفحات الأولى من الرواية الهاجس الذي كان يلازم زينة، إذ تصف لنا حالة الضياع التي تعانيها وتتساءل عن سر تغير الأحوال والطباع بين ماض وحاضر، إذ تذكر لنا الحادث الذي تلقفته عبر وسائل الإعلام، وقلب حياتها رأسا على عقب، إذ أصبحت لا تفرق أنها في حلم أم حقيقة هكذا هو حال أمريكا:"""... رأيت أمريكا تحترق أمامي وشممت رائحة الشواط، اسم الفيلم لابد أن يكون "" برج الجحيم نسخة حقيقية منه"[23]، فدولة أمريكا العظمى ليست في مأمن، تتعرض للهجومات الإرهابية، حتى في عقر دارها، مبنى برج التجارة العالمي في نيويورك يحترق، أولى التصريحات الإعلامية تقول بتعرض أمريكا لهجوم إرهابي، وأياما كان الأمر حقيقيا أو من ورائه أهداف أخرى مبيتة، فقد اتخذت أمريكا من هذا الحادث ذريعة لغزو العراق، وتخليصها من إرهاب صدام، الوجه الخفي لأمريكا بدأ يظهر.

تتحدث زينة عن تجهز العائلة للحصول على الجنسية الأمريكية، الحلم قاب قوسين أو أدنى أن يتحقق، أفراد العائلة كلهم يعيشون أجواء خيالية تملؤها الفرحة بينما والدتها ترفض أن تتزين وأن تتهندم يوم الذهاب للحصول على الجنسية الأمريكية في ديترويت، خيم عليها الحزن، تذكرت ماضيها تقول زينة:"" مددت يدي وتلقفت يد ماما المتيبسة، بينما الجموع تضع أيديها على مواضيع قلوبها وتلهج بالنشيد الوطني... وكان صوت السيدة العراقية بتول الساعور، أمي هو النشاز الوحيد الذي يولول بالعربية:"" سامحني يا أبي... يابا سامحني"".

كيف حضر جدي يوسف، أبو أمي إلى شارع الجامعة في ديترويت؟""[24]، فمهما تملص الفرد من ماضيه يبقى يلاحقه، تحس بالذنب، مقدار الخيبة يزداد، كيف يغفرلها أبوها وجدها ذلك، فالعرق دساس والدم العربي يسري في عروقها ولا تستطيع التخلص منه، ولأن من يشغله صوت الماضي، لا يستطيع مخاطبة المستقبل، لم تندمج في المجتمع الأمريكي ووقفت في فلك الإدمان على السجائر، أمريكا، تحولت إلى كابوس بالنسبة لها، بعد أن كانت تمني نفسها

وعائلتها بالخلاص من مضايقات حزب صدام الحاكم، اصطدمت بالواقع المر في ديترويت، يشتد الصراع النفسي الذي تعيشه زينة ذات الأصل العراقي والجنسية الأمريكية ويبلغ مداه الأقصى، فتارة تتقمص دور المؤلفة الروائية، وتارة أخرى تفرض عليها دور الحفيدة الأمريكية، فتلاعبت بها كيفما شاءت مارست المؤلفة سلطة الكتابة من خلال اللعبة السردية التي ابتكرتها ونسجتها في حبكة روائية محكمة تجعل القارئ يحتار من أمره ويصاب بالدوار نتيجة المفارقة في ظل ذلك الزخم المعرفي المليء بالأفكار المتناقضة، إنها استراتيجية العصف الذهني، أو تشتت الأفكار وتدفقها بشكل منتظم حيث تقول"" تراني المؤلفة ربيبة للاحتلال، وترى جدتي من نفائس المقاومة... رسمت لي ملامح البنت الضالة، العائدة فوق الدبابة الأمريكية مثل رامبو بصيغة المؤنث، نزيلة المنطقة الخضراء، سجينة الشخصية المرذولة الي تجتهد المؤلفة لتلف حبالها حول عنقي، وتفرض علي أن أستسلم لخيالها القومي المتوارث بلا تنقيح.""[25]

تحاول زينة تحاشي فعل الكتابة عن الحفيدة الأمريكية العائدة إلى بيت العائلة ببغداد، هذه الكتابة التي ستجعلها خائنة بالمقابل تجعل جدتها بطلة، تراودها حبكة روائية تسلبها الحق في أن يكون لها رأي لأن الكاتبة تريد أن تحرمها من المشاركة على طريقتها، هذه الحبكة الروائية تفرض عليها أن تكتب وطنيتها، أصولها، جذورها وأن تدافع عنها، وبالتالي تعطيها دروسا، تعتبر خائنة... تحاول زينة التمرد على تلك الحبكة، وتراها شيئا تجاوزه الزمن، في محاولة لإثبات وجودها في الرواية، إذ أنها تريد أن تفرض منطقها الجديد، وذلك بإظهار الدوافع والأسباب التي جعلت منها مهاجرة، ضف إلى ذلك أنها تعتبر نفسها جزءا من تاريخ بلدها ولها الحق فيه، مثلت الكاتبة للوطن الأصلي بالجدة رحمة التي ترمز للهوية والتمسك بالأصل، بينما اتخذت من شخصية زينة "حفيدة أمريكية ارتمت في أحضان الغرب وأحدثت القطيعة بين الشرق والغرب، بين العراق وأمريكا بين: بغداد و ديترويت.

تتحسر زينة من سخرية القدر وتمنت أن يعود بها الزمن إلى الوراء، لتصحح الأخطاء التي اقترفتها، أدركت ذلك متأخرة، لأنها لم تجد في أمريكا إلا الشيء القليل الذي كانت تطمح إليه، إعجابها بأمريكا بدأ يتلاشى تدريجيا جراء الخيبات المتكررة التي تعرضت لها من تجارب الحياة، فالهجرة إلى أمريكا لم تجلب السعادة والاستقرار بالنسبة لزينة، كما أن التجنيد لم

يصحح المسار ولم يحقق الأهداف المرجوة، وأدركت أنها كانت تعيش أكبر أكذوبة في حياتها، ارتسمت تلك الصورة في مخيلتها عندما بدأت تتقرب من مهيمن واعتبرت وقتها قبل ذلك ضائعا فراحت تصف الحياة التي عاشتها في أمريكا بسبب التهجير"" كم فرطت في العمر الذي مضى من قبل الهجرة، ديترويت، الغرين كارد، البيوت الخشبية المتعفنة في حي "سفن مابل"، أكواب القهوة الكرتونية الكبيرة الفاترة، السيارات الفخمة بالتقسيط... الفقراء الجدد الذين يصبحون أثرياء بعد أن تأكل الأشغال الشاقة عافيتهم، يعودون آخر الليل ممصوصين وعاجزين عن إبصار زوجاتهم وأطفالهم""[26]، وقعت في حب مهيمن وتمنت أن تقضي باقي حياتها معه من خلال وصف زينة لأمريكا يتضح لنا أن مقدار التناقض الذي يقع فيه الفرد العربي من خلال الصور النمطية المسبقة عن الحياة في أمريكا، عن أحيائها ومدنها عن التطور الذي وصلت إليه عن الوهم الذي يباع لنا من خلال شاشات التلفزيون والسينما والمجلات والجرائد، بينما الواقع يعبر عن ذلك من خلال سرد زينة للعوالم الحقيقة التي تحملها أمريكا بين ظهرانيها توجد عوالم مغيبة، صراعات طبقية، عنصرية، استغلال، جرائم، مخدرات، فقر، تفكك أسري، رأسمالية مقيتة... إلخ عصابات الأحياء، استغلال القصر... إلخ.

انطلاقا من الاختلاف والتمايز الموجود بين المجتمعات الشرقية والغربية صورت لنا زينة أمريكا ذات الأبعاد الواقعية كما هي خزعبلات شرقية، لو تم التعصب لها لوقع الصدام مع الآخر وحل سوء التفاهم وعدم اللقاء وحدث الانفصال الأبدي، زينة كان لها رأي أخر عن أمريكا باعتمادها مقاربة جسدتها لنا شخصية كالفن حيث يقول:"" لا تنفرني منه واقعيته وافتقاده إلى الخزعبلات الشرقية التي تثقل جيوبي، لا أتضايق من ثقل دمه ولا شعره الأحمر الخشن ولا النمش الذي يرقط أنفه وأعلى ظهره، يعجبني كالفن هكذا، كما هو على قليل ما يملك..."[27] ، رمزية الشخصية تحيلنا إلى صورة أمريكا بين المتخيل والواقع، عند وصف زينة لصديقها كالفن الأمريكي قبلت به كما هو رغم العيوب الموجودة فيه والنقائص ورغم اختلاف دينه ولونه وعرقه، كالفن يجسد صورة أمريكا بما تحمله من اختلالات، ومع ذلك فأمريكا هي أمريكا وهي حلم كل إنسان، أمريكا الواقع دولة عظمى وقوية.

إعجاب زينة بكالفن يعكس لنا مدى تأثرها بثقافة الغرب أي أمريكا وبعلمها وبحضارتها، وانعكس هذا الإعجاب ظاهريا من خلال مغازلته المتكررة وبأنه بالنسبة لها غزالها وعلى قدر من الجمال والوسامة على الأقل في عينها مستعينة بالمثل العربي "كل خنفوس في عين أمه غزال.

تمثلت صورة أمريكا الحلم بأبعاد متفاوتة من خلال الحلم الذي رأته زينة ليلة وصولها إلى بغداد قادمة من أمريكا حيث تقول:"" رأيتني أطرق باب بيت جدي يوسف في شارع الربيع وأنا مرتدية فستان عرس بنفسجي اللون، ولم يكن البنفسجي من ألواني المفضلة""[28]، تبين لنا أن المهاجر العائد بعد مدة طويلة يطرق أبوب دياره، يحضر العرس في المتن في دلالة واضحة على عودتها ميسورة الحال، أما فيما يتعلق بلون الفستان، كأنها تشير إلى أنها أرغمت على الذهاب بقولها لم يكن البنفسجي من ألواني المفضلة، سيمائية الألوان تكشف لنا الأنساق المضمرة فالأعراس عند العرب تكون بلبس الأبيض حسب العادات والأعراف وما لبس البنفسجي إلا دال على تغيير زينة لأصولها واكتساب الجنسية الأمريكية، وبعد ذلك تقول:"" فتح جدي الباب ولم أخف منه رغم علمي وأنا في الحلم بأنه قد مات...قمت من يومين، أردت أن أحضر عرسك يا سناء"[29]، الجد يرمز للتاريخ والأصول حضور الجد في الحلم ربما إشارة إلى أن الأجداد والأبطال يريدون الاطمئنان على الوطن، أو ربما تحمل مدلولا أخر يفضي إلى الحرب التي يعتبرها بعض العراقيون عرسا، مؤذنا باقتراب نهاية حكم نظام صدام الطاغية.

تتدخل الجدة وتصحح للجد اسم الفتاة (زينة) وتخبره بأنها تزوجت في غيابه و"" ها هي تعود إلينا بعد أن ترملت..."[30] ، تزوجت في غيابه: أي رحلت وتغربت، تزوجت وطنا آخر، وقول الجد يا سناء، إشارة إلى أنها غيرت هويتها.

تقول عندما اقتربت من جدي توارى وتحول الفستان إلى أسود"" وبقيت جامدة في مواجهة جدتي، نتبادل نظرات الأسى في الحلم... الفيلم؟"[31]، ربما موت الجد يعني سقوط الوطن، سقوط السيادة، وتحول الفستان يعكس الحرب وحالة الحزن، أما نظرتها مع الجدة: تبين حالة التخبط وتأمل المواطن لوطنه، هذا هو حال زينة فالمنام لخص كل شيء، ذهبت إلى

أمريكا فلم تجد فيها ما كانت تأمله، عادت إلى بلدها الأصلي أحست نفسها غربية بقيت محتارة أهي في حقيقة أم وهم وأحداث المشهد الأخير من الرواية، لخصت لنا هذا المنام، الحلم يتبخر.

يعكس لنا الحوار الذي جرى بين زينة ومهيمن أثر الهجرة التي تتركه في النفوس ""يسألني عن حياتي في أمريكا... يقول أن الهجرة مثل الأسر، كلاهما يتركك بين زمنين... أما أنا فأرى الأمر بشكل مختلف، أقول له إن الهجرة هي استقرار هذا العصر والانتماء لا يكون بملازمة مسقط الرأس. يمكن للعالم كله أن يكون وطنك، ألم تسمع بمصطلح المواطن العالمي؟""[32] حيث يري مهيمن أن الهجرة أشبه بالأسر ويتأثر لحال العراقيين المهجرين، بينما تراها زينة استقرار في هذا العصر نظرا للظروف التي حتمت على المواطن العراقي أن يترك بلده، هو يعتبر العراق وطنه الوحيد، أما هي فترى العالم كله وطنها، وفي معرض حديثهما يطلب منها أن تتزوج حيدر شكليا لكنها تعرض عليه هو أن يرافقها إلى أمريكا، وتعده بأنه لن يشقى في هذه الحياة، نستنتج مما سبق أن نظرة زينة للعالم أكثر انفتاحا ربما، هذا من خلال الفترة التي قضتها مع عائلتها في أمريكا، تفتحت عينها أكثر وفهمت الحياة من منظور آخر مختلف عن مهيمن الذي جرب الغربة من خلال أسره في إيران، ولكن تبقى وجهة نظر مهيمن مهمة لاسيما وأن زينة في نهاية المطاف، أدركت أنها تعيش في مهب الريح وأن الحياة التي عاشتها في أمريكا لا تعد وأن تكون زوبعة في فنجان.

الخاتمة:

ختاما يمكن رصد العلاقة بالآخر الأمريكي من خلال الصور التي تمثلت وصاحبت اللقاء بين العربي والأمريكي في رواية "الحفيدة الأميركية"، والتي تراوحت بين الصورة السلبية للأمريكي الاستعماري العنصري والعدواني والقبيح والمتعالي، وكذا الصورة الإيجابية عن الأمريكي المتحضر والإنساني والصديق والمثقف والمنفتح والوسيم... بالإضافة إلى الصورة الضبابية التي كانت "بين بين" غير واضحة المعالم، إذ يكون إعجاب وخوف في نفس الوقت، إقدام وإعراض، تحمس للأمريكي وترقب، ويمكن أن نعترف للروائية إنعام كجه جي، بكونها استطاعت أن تترجم حقا توترات العلاقة بالآخر (أمريكا) في ظروف استثنائية هي ظروف الحرب والدمار وتأجج نداءات الهوية والتطرف من كل جانب، دون أن تقع في خطاب أحادي منمط،

كما استطاعت أن تنتج خطابا ناضجا على مستوى شعرية الرواية...فجاءت شخصية زينة على وجه الخصوص تمثيلا فنيا راقيا لكل ما يعتلج في المخيال الجمعي العراقي ، ومن جهة أخرى، استطاعت أن تحافظ على رؤية رزينة لكل الإشكاليات التي تطفو على السطح في زمن الحرب. كما لم تتردد في تقديم كل الصور الممكنة للآخر، مع مسائلة الضمير الجمعي بشأن ما يجب فعله إزاء هذا العدو الحميم...!

رواية الحفيدة الأمريكية ليست رواية عن الهوية والتشظي فقط، بل هي سؤال وجودي عن مكانتنا في هذا العالم المضطرب، لأنها بشكل من الأشكال أقحمتنا في عالم روائي مفخخ لا يخرج منه أحد منتصرا.

الهوامش:

[1] إنعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، ط3، 2010 بيروت لبنان، ص16
[2] المصدر نفسه: ص16
[3] المصدر نفسه: ص 18
[4] المصدر نفسه: ص 17
[5] المصدر نفسه: ص 135
[6] ينظر: شهرزاد والكلام المباح (قراءة في الرواية النسوية) سلمان زين الدين، الدار العربية للعلوم بيروت، ط1، 2010 ص39 4
[7] رواية الحفيدة الأمريكية، المصدر السابق: ص127
[8] المصدر نفسه: ص72
[9] المصدر نفسه: ص153
[10] المصدر نفسه: ص153
[11] المصدر نفسه: ص25
[12] المصدر نفسه: ص54
[13] المصدر نفسه: ص56
[14] المصدر نفسه: ص27
[15] المصدر نفسه: ص28
[16] المصدر نفسه: ص28

[17] المصدر نفسه: ص30
[18] المصدر نفسه: ص31
[19] المصدر نفسه: ص74
[20] هالة سرحان: أمريكا خبط لزق.. مذكرات طالبة بعثة دار الشروق، القاهرة، 1995 ص108
[21] رواية الحفيدة الأمريكية، المصدر السابق: ص78
[22] المصدر نفسه: ص79
[23] المصدر نفسه: ص20
[24] المصدر نفسه: ص29
[25] المصدر نفسه: ص35
[26] المصدر نفسه: ص147
[27] المصدر نفسه: ص54
[28] المصدر نفسه: ص44
[29] المصدر نفسه: ص44
[30] المصدر نفسه: ص44
[31] المصدر نفسه: ص44
[32] المصدر نفسه: ص144

قائمة المصادر والمراجع:

01-إنعام كجه جي، رواية الحفيدة الأميركية، دار الجديد، ط3، بيروت، لبنان،2010،

02-شهرزاد والكلام المباح (قراءة في الرواية النسوية) سلمان زين الدين، الدار العربية للعلوم بيروت، ط،1،2010.

03-هالة سرحان: أمريكا خبط لزق.. مذكرات طالبة بعثة دار الشروق، القاهرة، 1995.